الجـزء الثـاني

التاريخ الإجتماعي والتاريخ الثقافي

الفصل السادس

أسس المجتمع البابلي وطرق الحياة في بابل

١ - نموذج عن المجتمع السومري

لقد بُذِلَت محاولة لإظهار تلك الحقيقة التي مفادها أن الحضارة السومرية قد اتَّخذت شكلها المُتَمَيِّز خلال النصف الأول من الألف الثالث ق.م فيما يُعرف عادة بفترة السلالات الأولى ولقد ظهرت الشواهد التي تُقْنِعُنا أن ذلك المجتمع قد نشأ من خلال ثقافة جمدت نصر وهي تلك الثقافة الفلاّحية التي عُرفت باسم ثقافة أوروك التي قد ازدهرت في نهاية الألف الرابع ق.م. ولم تكن تلك الثقافة ومن خلال مظاهرها الهامّة ثقافة مستوردة من الخارج، ولكنها كانت ثقافة قد ظهرت في أراضي ما بين النهرين. ورغم التطورات التي حصلت، إلا أن الفساد والانحلال والتغيرات التي حدثت في كثير من التفاصيل خصوصاً التي حدثت نتيجة تلك الموجات المتتالية من المهاجرين السَّاميين، إلا أن تلك المؤسسات السومرية قد ظلت مطابقة لأصولها وظلت واضحة المعالم طيلة المدة التي عاشت فيها الحضارة البابلية وحتى نهاية تلك الفترة من المميزات المفضلة منذ أقدم الأزمنة.

من الواضح تماماً أن شعوب ثقافة أوروك لم يكونوا أول من سكن منطقة جنوب بابل نظراً لأنه قد سبقتهم تلك الشعوب التي تمثّلها ثقافة عبيد وأريدو. هذا وعلينا أن نتذكر أن الثقافة الأخيرة وهي ثقافة أريدو يعتبرها بعض الثقات ثقافة سومرية صحيحة أي مثل أيّة جديلة من الخيوط تمثّل العنصر العرقي المسؤول عن ثقافة أوروك وأنهم هم الذين كانوا أول المستوطنين في تلك الأرض البكر التي أصبحت فيما بعد تسمّى سومر. ولابد أن هؤلاء الشعوب قد استخدموا بعض الأشكال البدائية للصرف الصحي والرّي وذلك لأنه ودون تلك الأشكال لم يكن

من الممكن زراعة وإنماء الشعير في شمال أراضي بابل وهو النوع والمصدر الرئيسي للحبوب عندهم. والحقيقة أنه وخلال تلك الثقافة أي ثقافة أوروك لقد بدأت عملية حفر القنوات وأعمال الري على مقياس واسع، الأمر الذي كان ذا نتائج لا تُعَدُّ ولا تحصى بالنسبة للتقدّم والازدهار البشري، وكانت تلك الأعمال التي فرضت على أولئك السكان الأوائل في سومر بفضل بعض الاعتبارات المناخية كانت عناصر أساسية عملت على تشكيل البنية الاجتماعية، إذ لا يمكن أن تتم هذه الأعمال بشكل فعّال إلا بوجود وحدات بشرية كبيرة ويعمل جميع أفرادها في مجهودات مشتركة متعاونة في حين أنه لا يمكن أن تتمّ تلك النتائج الباهرة عن طريق مجهودات العائلات المنفردة التي تسكن في قرى صغيرة في المستنقعات، وبعد أن اتُّخذت أولى الخطوات تبع ذلك ازدياد سريع في عدد السكان كنتيجة لزيادة كميات الطعام التي أصبحت متوفرة الآن. وهكذا فإنه نتيجة لتعاون من هذا النوع بين الوحدات الكبيرة التي تتجاوز العائلة أو العشيرة والتي تعمل في مساحة واسعة من الأرض، أن نشأت الدويلات - المدن، فإنه على هذه الدويلات - المدن وليس على العائلات أو العشائر تأسست البنية الاجتماعية لبلاد سومر.

إن نشوء تلك الدول - المدن المعتمدة اعتماداً كلياً على الري قد أدى إلى حدوث بعض التطورات واتجاهات أخرى عديدة لا يمكننا معالجة الكثير منها بل بعضها هنا. ففي جنوب العراق ليس للأرض أية قيمة دون وجود الحق باستعمال مياه الري، وكان منح أية قطع من الأرض ينبغي أن يتزامن مع حق الري لتلك الأرض. ولكن أستعمال قنوات الري عشوائياً كان يسبب الخراب والدمار والأرض الخاصة بالأفراد الكثيرين من المجتمع، وهكذا أصبح من الضروري وضع قواعد وقوانين لاستعمال قنوات الري، والتأكد من مراقبتها، وهكذا أصبحت هذه إحدى العوامل التي ساعدت على ظهور التشاريع المكتوبة والنظام الإداري ونشوء جنين النظام البوليسي بشكل مفتشي الأقنية والذي عُرف فيما بعد باسم غوغالو Gugallu هذا وإن انفجار ضفاف الأنهار بفعل الفيضان أثناء فصل الربيع الذي كان تهديداً مستمراً للبلاد حتى منتصف القرن العشرين الميلادي، هذه الفيضانات كانت تزيل جميع

علامات الحدود القديمة في الحقول، وكانت هذه الحالات من الأسباب والحوافز الظاهرة لتطور علم الهندسة وفنون قياس المساحات وكانت الحاجة الدائمة والملحّة للنضال ضد المياه المتدفّقة لها تأثيرها في علم الأساطير، حيث كان الكائن البدائي الذي تحكمه الآلهة العظام هو تيمات أي البحر. وأمّا الأنهار فهي خَيِّرة ومفيدة ولكن سلوكها يبدو حاسماً ومتسلّطاً إذ إن فيضاناتها تعتمد على ذوبان الثلوج في جبال أرمينيا، ولم يمكن التنبؤ بهطول الأمطار الربيعية في منطقة نهري الزاب وفوق ذلك، فلم تكن أوقات فيضان الأنهار مناسبة للمحاصيل الزراعية كما كان الحال في مصر ولقد انعكس هذا العنصر من التوقع والقلق بالنسبة لخصوبة الأرض على الديانة السومرية وعلى نظرة البابليين إلى الحياة. ومن الممكن أن نذكر أن وجود السلطة المركزية قد ساعد على ازدهار فن العمارة وتظل الزقورات أو الأبراج العظيمة ذات الأدراج المعالم المرموقة في المدن السومرية (الصورة ٣ب و ١٣أ).

ولقد كانت إحدى نتائج تحسُّن تقنيات الري نقل المنطقة الزراعية من منطقة الدلتا أي مصبّات الأنهار إلى السهول النهرية وهذا ما حدث. ولقد ظهرت أريدو على ضفاف بحيرة داخلية واقعة على الخليج العربي ولقد تجاوز هذا الموقع أقصى حالة من حالات الأهمية في تلك الفترة المعروفة بفترة الأسر القديمة، وفي التاريخ السومري القديم كانت إيريش هي المركز الثقافي الرئيسي وتنعكس تلك النقلة من التطور في تقنيات الري وتظهر في الخرافات السومرية حول زيارة الإلهة أنين لوالدها أنكي.

هناك حواجز طبيعية قليلة بالنسبة للمواصلات في سومر. وفي فجر التاريخ كان هناك وحدة ثقافية مرموقة خلال تلك البلاد. ولا يظهر هذا بالفن المعماري الموحد ولا بالمؤسسات السياسية والدينية بل بانتشار الكتابة التي اخترعت حديثاً خلال جميع المدن في سومر، ولم يكن انتشارها ظاهراً بشكل مبدأ عام بل بالتفاصيل، وليس من قبيل المصادفة أن نجد أن قوائم الإشارات المسمارية في المدن المختلفة متشابهة تماماً.

لقد أشرنا سابقاً إلى نظرية جاكوبسن المقبولة بشكل واسع وهي أن الأشكال الأولى للتنظيمات السياسية في منطقة ما بين النهرين كانت عبارة عن ديموقراطية بدائية، ويعني جاكوبسن بهذا شكلاً من أشكال المجتمع، حيث تكون القوة النهائية منحصرة بمجتمع يضم جميع الرجال الأحرار الراشدين. ولا يمكننا إثبات هذه النظرية مباشرة نظراً لأن الفترة التي تنتمي إليها قد انتهت قبل نشوء الكتابة. ولكن يمكننا استنتاج تلك المقولة من الخرافات والملاحم البطولية التي تنتمي إلى الأدب السومري والبابلي القديم على شرط قبول تلك الفرضية التي مفادها أن تنظيم الآلهة ما هو إلا انعكاس لتنظيمات المجتمعات البشرية خلال ذاكرة الزمن الذي تبلورت فيه تلك المجتمعات ومع أن تلك الخرافات لم تكن مكتوبة قبل بداية الألف الثاني ق.م. إلا أنها تعكس بالتأكيد فترة متناهية في القدم قبل أن تُحصَّن المدن بالأسوار وتنظم للدفاع ضد آلات الحصار. ومن الممكن تأريخ هذه الفترة بأنها كانت خلال مئة عام من فترة عام ٢٨٠٠ق.م. ففي القصص الخرافية يذكر أن هناك إجراءات مُعَيَّنة يجب اتباعها عند إصدار القرار النهائي. عندها تأتي مجموعة الآلهة من الذكور والإناث وتجتمع معاً في اجتماع مهيب وبعد أن يشربوا بحرية يعرض أحد الآلهة الحاضرين بعض وجهات النظر مع أن هناك فريقاً من الآلهة لهم الأفضلية ولآرائهم وزن عظيم. وبعد أن تغلب إحدى وجهات النظر يشكل الإلهان العظيمان القرار النهائي، حيث يوافق بقية الآلهة بالإجماع، وهذا هو المجتمع الذي يعكس حالة المجتمع في نيبور والذي وصفه جاكوبسن. وتَصِفُ الملاحم البطولية الظروف التي كانت سائدة زمن تأسيس التحصينات، ويقدر هذا بعام ٢٧٠٠ق.م ولقد نتج عن ازدياد المدن وعدد السكان، ونمو التجارة على مقياس واسع مع الأماكن البعيدة، وظهور المنافسات السياسية والاقتصادية. مما فتح الطريق أمام الخصومات حول الأراضي المروية والسيطرة على الطرق التجارية. بينما كان استعمار المناطق البعيدة قد أسهم في سقوط نظام الاستشارة الوطنية القديم. ولقد كانت الهجرات السامية سبباً في خلق بعض الظروف التي أدَّت إلى بناء وإنشاء وسائل الدفاع. فقد كان المهاجرون الساميون يدخلون سومر عن طريق الأطراف الصحراوية غرباً وذلك منذ أقدم الأزمنة. ويظن أنهم كانوا يأتون بشكل جماعات صغيرة ومنعزلة من العائلات

التي استطاع أفرادها التكيّف مع الثقافات العالية التي تمتعوا بها، فلم تكن هجراتهم تتسم بالعُنْف أو بشكل موجات كاسحة. هذا ولقد ذابت هذه المجتمعات المهاجرة تماماً وكانت تأثيراتهم الدائمة تظهر في تعديلات تدريجية في المجتمع ككل وليس بظهور طبقة جديدة. ولم يظهر أي أثر لتقسيم المجتمع إلى جماعات فلاحية وجماعات من الرعاة تلك الظاهرة التي لم يكن فيها أي خصام فعلي بين الراعي والفلاح، بل كانت المناقشات تدور حول نفع أو فائدة منتوجاتهم وليس بالنسبة للشرائح الاجتماعية أو الأصول.

وبينما يقبل معظم علماء الآثار الاعتراض أنه من الخطأ محاولة النظر إلى تاريخ الألف الثالث بأنه مُفعم بالنضال العنصري بين السومريين والساميين. ولكن يبدو أنه من الصحيح القول إن تسرُّب الساميين إلى المنطقة قد قدَّم بعض الأفكار المناوئة لمفاهيم المجتمع السومري مما كان قد سبب بعض الاحتكاك ما بين المدن ذات العناصر السامية المرموقة وأولئك البعيدين عن الضغط الكامل للهجرة السامية. وكانت أول حادثة تمثل الحالات الحربية بين المدن هي حصار إيريش التي كان حاكمها هو جلجامش وكان خصم جلجامش هو شخص يدعى آغا وهو ملك (كيش) وهي مدينة واقعة في الشمال وقد كانت معرَّضة لضغط المستوطنين الساميين من الغرب أكثر من تعرَّض أيريش لضغط هؤلاء المستوطنين الساميين.

تخلق الحرب حالة ينبغي فيها اختيار قائد وملك. وتظهر الملاحم البطولية أن الحاكم قد وصل. وتظهر الخرافات أن الجمعية العمومية قد عيَّنت ملكاً يدوم حكمه خلال فترة الطوارئ ومن الممكن سحب تعيينه، وهناك شاهد يدل على اختيار الجمعية العمومية لأحد الملوك حوالي عام ٢٣٠٠ق.م. ومع أن بعض العلماء قد أنكروا أن هذا الاختيار يعود إلى حادث تاريخي، إلا أن الشواهد الحديثة تشير إلى أنه تشاؤم لا موجب له.

كان تسنّم مقاليد الحكم يتطلب موافقة الآلهة التي من الممكن سحبها في أي وقت، ولم يكن هناك أية إشارة إلى الحكم الوراثي. والحقيقة أن ابن الحاكم كان يتمتع بفوائد جمَّة عند اختيار الحاكم الجديد وذلك لأن أفراد العائلة

الحاكمة من المفروض أن لهم خبرة في إدارة الأعمال وإدارة شؤون المعابد، ومع ذلك ينبغي عرض الحاكم الجديد على الإله لينال موافقته، ولكن هناك استثناءات كثيرة لما أصبح عادة سائدة لتوارث الحكم. وبصورة نظرية فإن الطبيعة المؤقتة للملكية كانت معترفاً بها حتى نهاية عهد بابل وكان من العادة أن يسلّم الملك شارة الحكم في بداية فصل الربيع وفي احتفال قدوم السنة الجديدة، وبعدها يقوم باعتراف سلبي وبعدها يعاد تنصيبه من قِبَل الإله.

وكانت المدينة مع أراضيها ومع جميع سكانها هي ضيعة إله المدينة وكان حاكم المدينة أو الملك الكاهن (وكان جلجامش أحد هؤلاء) هو القهرمان أو الوكيل. فقد خلقت الآلهة هذا الإنسان ليقوم بخدمتها ولهذا فقد أصبح المواطنون الأحرار خدماً للإله. وهناك أقوال كثيرة تؤيد هذا الرأي وهناك أسطورة تقول إن الإله إنليل فصل السماء عن الأرض وإن الإله قد ضمّد جراح الأرض في نقطة الاتصال ما بين السماء والأرض وهي مدينة نيبور حيث كان اسم معبد المنطقة هو دورأنكي Duranki وهو عبد السماء والأرض. وبعد إتمام ذلك حدث ما يلي:

ضرب الإله بفأسه الأرض (وهي التي تنتج اللحم)
وفي ذلك الثقب الذي عمله كانت طليعة البشرية
وبينما كان شعب تلك البلاد يتقدمون بقوة نحو إنليل
نظر إلى أولئك ذوي الرؤوس السوداء (البشر) بأسلوب حاسم
وبعد ذلك تقدم نحوه الأنوناكي (أحد مجموعات الآلهة الرئيسية)
وقد طالب ذوو الرؤوس السوداء (البشر) من إنليل...

كان واجب مواطني الدولة المدينة السومرية ينحصر في خدمة ضِيَع وأملاك المعبد. ومقابل ذلك كان كل مواطن حُر يستلم حصة من أملاك الإله أي من أراضي المعبد. وكان حجم الأراضي التي يستلمها الفرد تتناسب مع حالته الاجتماعية، وكانت أقل مساحة هي دونم وأكبر مساحة هي مئة دونم، مع أنه إذا ازدادت مساحة الأراضي المملوكة عن هذا القدر، فإن ذلك يعتبر انحرافاً عن النظام القديم، ولم يكن المالك الجديد للأراضي هو الذي يشتغل في الأرض بل كان

يستخدم الرجال الأحرار الفقراء أما في الفترة المتقدمة فقد كان يستخدم العبيد. وكانت مساحة الأراضي التي يملكها الفرد تختلف ليس بالنسبة للمهنة بل تختلف بالنسبة للأفراد الذين يقومون بممارسة تلك المهنة ولا يُعرف سبب هذا الاختلاف في المعادلة. ومن الممكن أنه عدا عن اعتبارات أخرى ربما كان هناك نظام للتمييز العائلي وهذا مذكور في إحدى النصوص التي تذكر أنه عندما تزوج مارتو Martu وهو إله الساميين البدو الرّحل، فتاة من مدينة كازالو Kazalu فهو يقول:

الهدايا التي تقدَّم للرجل المتزوج، لقد ضاعفها
والهدايا التي تقدَّم للرجل عندما يكون لديه أولاد لقد ضاعفها ثلاثة أضعاف
أما الهدايا للأعزب فقد جعلها حصة واحدة

ويستطيع الرجل الحر أن يمتلك بيتاً ربما كان كوخاً من الطين وهو يشبه السّريفة التي تستعملها الطبقات الفقيرة ولا تزال في العراق ومع البيت حديقة صغيرة ملحقة به. ويذكر النص أنه رغم تجاوزات الأشرار والأقوياء، حتى الفقراء كانوا يمتلكون مثل هذه البيوت ومن الواضح أنه وحوالي نهاية فترة الأسَر الأولى عندما تصبح معلوماتنا وافرة كانت المعابد هي المالكة الكبرى لمعظم الأراضي مع أن بعض الملوك والملكات والأمراء قد امتلكوا بعض الأراضي واعتبر هذا عملاً موجَّها ضد الآلهة، بينما كان الحال في السابق كما يلي:

(لقد أُلْحِقَ منزل الأنسي Ensi بحقول الأنسي ومنزل زوجة الأنسي قد أُلْحق بحقول زوجة الأنسي وكذلك فإن منزل أحفاد ونسل الأنسي قد أُلحق بحقول أحفاد وأنسال الأنسي) ولقد انتبه أوروكاغينا Urukagina إلى هذه الحالات فقام بالإصلاحات التالية:

في منزل الأنسي Ensi وحقوله فقد عيَّن نين غيرزو NinGirsu (إله لاغاش) مالكاً لذلك البيت وبالنسبة لمنزل زوجة الأنسي وحقولها فقد عين الإلهة باوا Bawa مالكة لذلك المنزل وتلك الحقول، وبالنسبة لمنزل أحفاد الأنسي وحقولهم فقد عيّن الإله شول شا غانا Shulshaggana مالكاً لهذه المنازل.

وعند التقيد بنفس هذه المفاهيم فقد وُصفت الأراضي المرويّة التي سببت حصول خصومات وحتى نزاع مسلّح ما بين المدينتين، لقد وصف هذه الأراضي باسم الحقل المحبوب نين غيرزو NinGirsu إن نفوذ المهاجرين الساميين مسؤول عن نمو فكرة الملكية الخاصة للأراضي. وحتى قبل مجيء الأسرة الأكادية وجدت عقود بيع للأراضي في المدن الشمالية، حيث كانت هناك عناصر أكادية (سامية) قوية. ولكن عدا عن استثناءات قليلة لهذه القاعدة، فإن الملكية الخاصة للأراضي المروية كانت نادرة جداً في سومر القديمة وكانت غير عادية حتى في فترة السلالة الثالثة في أور.

ولقد وجد نص يُظهر أنه وُجد في ذلك الزمن بعض مالكي الأراضي الذين كانوا يملكون ضيعاً واسعة.

لقد قسمت الأراضي المروية الخاصة بالمعابد إلى ثلاثة أجزاء. أحدها يدعى «حقل الإله» وكان يُقصد به تأمين حاجات الطقوس الدينية والاقتصاد الداخلي للمعبد وتبلغ مساحة هذه الأراضي حوالي ربع مساحات الأراضي التابعة للمعبد وأما الباقي فقد وُزّعت على سكان الضيعة التابعة للمعبد، إما بشكل حصص تقدم مقابل الخدمات المقدّمة للإله أو بشكل حقل للعمل أي الأراضي المستأجرة التي يدفع إيجارها من ريع الحصاد. وفي الفترة الأسرية القديمة كان هذا الإيجار منخفضاً جداً بحيث يقابل سبع ثمن قيمة المحصول. ولكن في زمن الأسرة الثالثة في أور قد ارتفع الإيجار إلى ثلث المحصول. وبالإضافة إلى الأراضي المروية والحدائق الخاصة كان هناك مساحات كبيرة من أراضي المستنقعات بمحاذاة الأنهار والبحيرات، حيث يمكن أن ترعى المواشي والخنازير وكان هناك أراضٍ مفتوحة للحمير والأغنام والماعز لترعى بعد هطول الأمطار في الشتاء. إن تشابك المصطلحات السابقة ربما تشير إلى أن الدولة المدينة والمعبد كانا يشيران إلى شيء واحد أي مترادفين وقد كان الحال بهذا الشكل عند البداية الأولى للمجتمع السومري ولكن في الوقت الذي تبدأ به شواهدنا كانت المدينة أصلاً تحتوي أكثر من ضيعة واحدة تابعة للمعبد. مثلاً لاغاش التي نمتلك معلومات قيّمة عنها فقد كانت تتألف

من أربع مدن أو ضيَع كل منها تابعة لمعبد أو مجموعة من المعابد، كان المعروف منها حوالي عشرين معبداً في زمن الحاكم غوديا Gudea (لقد أصبح هذا العدد مضاعفاً في زمن الأسرة الثالثة في أور) ولكن معظم هذه المعابد كانت صغيرة متواجدة فوق أحد الأضرحة. وكان رئيس هذه الآلهة هو نين غيرزو Ningirsu الذي كان الآلهة الأخرى تتصل به عن طريق علاقات عائلية.

كانت زوجة نين غيرزو الإلهة باوا وكان معبدها في لاغاش يمتلك حوالي أحد عشر ألف فدان من الأراضي المروية. وكان هناك ثلاث ضيَع أخرى تابعة للمعبد في مدينة لاغاش ولقد حُسِبَ أن المعابد كانت تستلم حبوباً من أراضيها تزيد عما تحتاجه للإعاشة والبذور، وكان كثير من الحبوب الزائدة يصدر، ولكن أهراء المعبد كانت تؤلف احتياطاً قيّماً للمجتمع في حالة حدوث نقص في الأشهر السابقة للحصاد. وكان هذا يؤلف سبباً وجيهاً لجمع الفرعون الحبوب خوفاً من حدوث مجاعة في قصة يوسف. وكانت مخازن المعبد التي لا تزال ترى في الحفريات القائمة تحتوي سلاسل من المؤن وكانت نواحي وأطراف المعبد تشبه خلية النحل بما فيها من الأنشطة الاقتصادية فقد كانت تجلب إلى هنا جميع منتوجات أراضي المعبد مثل الذرة والفواكه والخضروات والسمك المجفف والجبن والتمور والسمسم لإنتاج الزيت والصوف والجلود للدباغة والقصب للاستعمال في البناء. وكانت بعض هذه المنتوجات (مثل الذرة والزيت والصوف) تقدم بشكل إعاشة للأشخاص الذين يعيشون في ضيعة المعبد، أما المنتوجات الأخرى فكانت تصرف لخدمة المعبد كما هي أو تستعمل كمنتوجات مصنعة وبعضها كان يخصص للتصدير. فقد كانت سومر مفتقرة إلى ثلاثة مواد أولية هامة وهي الأخشاب والأحجار والمعادن. ومنذ أقدم الأزمنة كانت هذه المواد تُجلب من الخارج، حيث كانت الطرق التجارية الرئيسية مفتوحة أمام السومريين في ذلك الزمن. فقد كانت القوافل التجارية تسيير ما بين سومر وجبال إيران محملة بالشعير مما زاد من محاصيل المعبد وتعود ومعها اللازورد وبعض الأحجار الكريمة لأجل تجميل المعابد، وكانت هذه الواردات تأتي عن طريق الحملات التجارية ويدفع لها مما يزيد عن حاجة المعبد خصوصاً الحبوب والصوف

(إما في حالة خام أو منسوجات) وكانت المواد الغذائية كالبصل والبخور والصناعات السومرية مثل الأدوات والأسلحة والمجوهرات وكان التاجر أو قائد القافلة رجلاً محترماً مسؤولاً وكان يعمل في خدمة إله المدينة.

وكانت شبكة الأقنية قد حفرت خلال الفترة السومرية، وبعد أن وُسّعت أصبح بالإمكان نقل كميات كبيرة من البضائع بواسطتها من دويلة - مدينة إلى دويلة أخرى، وهكذا شكلت نموذجاً حيّاً للتجارة البابلية الداخلية، وكان التواصل ما بين الدولة - المدينة والدول الأخرى سهلاً عن طريق الأنهار ولم يكن هناك صعوبة في إجراء المواصلات برّاً ويفاخر الأنسي شولغي Ensi Shulgi في إحدى التراتيل بأنه كان معتنياً بقضية المواصلات ضمن أراضيه ويقول:

لقد سرت خلال طرق البلاد
لقد حميت الطرق وأسّسْت الحصون هناك
وزرعت الحدائق على الجوانب وبنيت بيوتاً للراحة
وسمحت للرجال المحترمين بالبقاء هناك

وقد كان السفر متوفراً وسريعاً ويدّعي شولغي Shulgi أنه احتفل بعيد إيش – إيش Esh-Esh في أور ونيبور في نفس اليوم وهذا يقتضي القيام برحلة تستغرق تسعين ميلاً وكان هذا شيئاً استثنائياً دون شك وقد أصبح ممكناً باستعمال سفينة تسوقها ريح قوية ورجال ذوو أعصاب رزينة نظراً لأن شولغي يشير إلى حدوث عاصفة هوجاء ويقول:

في ذلك اليوم حدثت عاصفة هوجاء وقد بدأت العاصفة باجتياح المنطقة
ولقد سيطر البرق والرياح السبعة على أرجاء السماء
ولقد بدأ إيشكور Ishkur (إله الطقس) يزمجر في السماء
وقد بدأت هبّات الرياح من السماء تضرب المياه على الأرض
وبدأت حبوب البَرَد الصغيرة والكبيرة تضرب ظهري

إن ذكر شولغي لبنائه الحصون الصغيرة تذكرنا بنتيجة أخرى للتجارة الداخلية في المدن أي في سومر. حيث إذا لم تستطع إحدى الدول - المدن البسيطة تأمين الطرق التجارية التي كان ازدهار البلاد معتمداً عليها، وقدّم هذا الحوافز للتوسع السياسي، على يد الدويلات الأقوى والأغنى، وهكذا خدمت التجارة كعامل في خلق نظام إداري وسياسي موحّد كان صادقاً وكاملاً في فترة الأسرة الثالثة في أور. ولقد ساعدت التجارة أيضاً ومنذ أقدم الأزمنة في نشر الثقافة السومرية إلى أوساط بعيدة عن حدود سومر نفسها. وهكذا وفي تل براك Tell Brak في شمال سوريا كان هناك (حوالي ٣٠٠٠ق.م) معبد بني على نفس النمط المستعمل في سومر وكان محتوياً على أشياء مشابهة في تزيينها لتلك المستعملة في سومر. بينما وُجدت معابد تعود للأسر القديمة في كل من آشور وماري وكانت تحتوي على تماثيل مصنوعة طبقاً للأسلوب السومري. لقد أشير في ذكر أعلاه أن الملك الكاهن المعروف في أقدم الأزمنة باسم العين En كان يعين أصلاً في معبد الإله في حجرة تدعى إيغي بار Egipar وكان الممثل الشرعي للإله وما دام أن هناك ملكاً بابلياً فقد استمر هذا لكونه ممثلاً للملك يمارس بعض الوظائف الكهنوتية. ورغم هذا فإن الوضع الملكي لم يتطور مباشرة من وظيفة العين. ففي منتصف الألف الثالث عندما كانت الوثائق تقدم لنا معلومات مفصلة عن الظروف والحوادث في سومر وخصوصاً في لاغاش كان ذلك الموظف المدعو إنسي Ensi هو المسؤول أمام الإله. عن إدارة المعابد وضيَع المعابد والمدينة بصورة عامّة. وبينما كان لكل معبد موظفوه المختصون به الذين يُدعون «شعب الإله كذا وكذا» وله إدارته المستقلة، إلا أن جميع هؤلاء كانوا أتباعاً للإنسي. هذا ولقد سمحت المحاصيل الوفيرة من الأراضي الخصبة في جنوب بابل والتي كانت تحت إشراف الري المنتظم بدرجة مرموقة من الاختصاص وتقسيم العمل مع وجود أنواع مختلفة من العمال والحرفيين. ودون إعطاء قائمة مُتْعِبة يمكن للمرء أن يُعدّد بعض الحرف مثل بنائي الطوب، النجّارين والحدادين والبنائين والغزالين والنسّاجين والجزّارين والطباخين وصانعي الخمور والخبازين وصانعي الفخار والمجوهرات والحلاقين، بالإضافة إلى أولئك العاملين في العمليات الزراعية وضيَع المعابد، وكان هؤلاء مقسومين إلى مجموعات اختصاصية

وفضلاً عن العمال العاديين كان هناك الحراثون والرّعاة ورعاة البقر ورعاة الخنازير والحدائقيون والمهتمون بمزارع النخيل والخضروات، ونظراً لأن السمك كان غذاءً هاماً فقد وُجد صيادو السمك وبأعداد كبيرة في ما بين موظفي المعبد وقد قسموا إلى صيادين في المياه العذبة وصيادين في المياه المالحة. وكان معبد الإلهة باوا Bawa يحتوي على أكثر من مئة صياد سمك ويظهر نفس النّص أنه وفي منتصف الألف الثالث كانت القوة العاملة جميعها التابعة لِضيَع المعبد لهذه الإلهة يبلغون حوالي ألف ومئتي شخص، فإذا أضفنا الزوجات والأطفال وفرضنا أن المعابد الأخرى تعمل على نفس المستوى عندها يصل العدد إلى ما يقارب عدد سكان لاغاش. وهذا مذكور في إحدى النصوص من زمن غوديا Gudea، بأن العدد قد بلغ ٣٦٠٠٠ شخص. ومع أن هذا العدد عدد مثالي فلا ينبغي اعتباره متجاوزاً للنظام الصحيح. وهكذا فإن القوة العاملة كانت هي المواطنين أنفسهم، ولم تكن هناك أية طبقة مرفهة خالية من الهموم ووظائف الحياة اليومية ولم يكن هناك أي اعتماد كلي على العبيد عدا عن ذلك الإحساس الذي مفاده أن كل إنسان يُعتبر عبداً في خدمة الإله، ولما كان الاقتصاد التابع للدول - المدن معتمداً على الري ولما كان جميع المواطنين هم عبيد الإله وهم مسؤولون عن إدارة ضيعته، لهذا فهم جميعاً مجبرون على القيام بأعمال السخرة، وعليهم الاشتراك في العمل في السدود والقنوات وبناء المعابد أيضاً. ولقد بقي هذا صحيحاً نظرياً حتى نهاية فترتنا وذلك لأنه وحتى منتصف الألف الأول كان ملوك آشور وأبناؤهم يقومون بالعمل الرسمي وهو حمل السلّة على الرأس (انظر اللوحة ١٨أ التي تظهر كيفية قيام الملك بهذه العملية).

العبودية

لقد كان العبيد موجودين ولكنهم لم يكونوا أغلبية بين السكان ولم يعتمد العمل في المجتمع الآشوري عليهم اعتماداً كلياً. ففي الفترة الأولى للسلالات لم يكن العبيد عنصراً هاماً وكانوا يتألفون بصورة عامة من أسرى الحروب وكانوا يحصلون عليهم بعد القيام بالغارات في البلاد الجبلية، إذ إن معنى الأمَة وهي الفتاة

الرّق باللغة الآشورية هو «امرأة الجبال». ومن غير المعروف حقاً الفترة التي كان من الممكن للمواطن الحر أن يصبح عبداً ولكن اعتباراً من الأسرة الثالثة في أور (حوالي ٢١٠٠ ق.م) عرفت أحوال أصبح الرجل الحر فيها عبداً إما ببيع الرجل لنفسه بسبب الديون أو الجوع أو إذا باع أحد الوالدين الغاضبين أولادهم ليصبحوا عبيداً. ولقد أصبحت مثل هذه الإجراءات شائعة جداً في فترة لارسا Larsa (حوالي ١٩٠٠ق.م) وربما كان ذلك نتيجة للمصاعب الاقتصادية بسبب اقتحام العموريين للبلاد في ذلك الزمن وفي فترة السلالة الأولى في بابل تُفيد قوانين حمورابي أن مصدر العبيد الرئيسي هو الاستيراد من الخارج بطريق التجارة أكثر منه عن طريق أسرى الحرب.

في عهد السومريين كانت الإماء أكثر عدداً من ذكور العبيد وعدا عن الاستخدام الواضح للصبايا والجميلات من الإماء، إلا أن أعمالهن الرئيسية كانت تنحصر في مطاحن الحبوب والمعبد وفي الورشات، حيث يقُمْنَ بالغزل والنسيج. وفي أوائل فترة الأسر كانت المعابد أو القصور الملكية هي المالك الوحيد للعبيد، حيث يسكنون في ثكنات تحوي على مجموعات العمل التي لم تكن لتشبه معسكرات النازي أو السوفيت في القرن العشرين، ولكن تطورت بالتدريج الملكية الشخصية للعبيد. ولقد قُدِّر أن رب البيت العادي كان يملك اثنين أو ثلاثة من العبيد وذلك في بابل أما في آشور فكان رب البيت هناك يملك بمعدل ثلاثة أو أربعة عبيد وكانت الإماء تستخدم كمحظيات لدى الذكور من أهل المنزل. أما الفتيات اللواتي يشتريهن الناس كإماء فكُنَّ يحمين من البغاء بوضع شرط في عقد البيع أنهن ينبغي أن يتزوَّجن وعادة من عبد آخر وفي بعض الأحيان يكون الزوج رجلاً حُرّاً ويجوز أن تتزوج الواحدة عدة أزواج في حالة وفاة الزوج الأول.

لم يكن العبيد في بابل طبقة منغلقة وذلك لأن الرجال الأحرار كانوا يتعرضون أحياناً للاستعباد أو كان العبيد يصبحون أحراراً بينما كان زواج امرأة حرّة من أحد العبيد شائقاً ويجوز للعبد امتلاك بعض الأملاك التي يستطيع عن طريقها شراء حرّيته. وفي حالة موت العبد كانت أملاكه تعود لسيده. ليس هناك

من إثبات أن العبيد كانوا يحملون إشارات مميزة لعبوديتهم، ولكن اعتباراً من الأزمنة القديمة في بابل كان العبيد يُميَّزون بنوع من حلاقة الرأس أو بوضع قيود وسلاسل وكان هناك نوع من العلامات بشكل وشم أو كي الحروف على الوجه، أو في ظهر الكف وكانت مثل هذه العلامات تنفذ بالنسبة للعبيد الذين كان لديهم ميول للهرب وكان هؤلاء يوثقون بالسلاسل أو يكتب على صدورهم أو وجوههم كلمات «هارب، ألق القبض عليه». ويُذكر بعض الحالات عن عبد كان اسم سيده مكتوباً على ظهر يده بلغتين، وكان الرجال المتميزون وذوو الأهمية في بابل يقومون بوضع مثل هذه العلامات على عبيدهم، وذلك خلال الألف الأول ق.م. وكان هؤلاء العبيد مكرّسين للخدمة في المعبد ولم يشتملوا على الأسرى لدى الدولة أو العبيد الموهوبين للمعبد، وكان منهم أشخاص أحرار مثلاً الأطفال المشرَّدون أو أطفال عائلات فقيرة تسلّمهم عائلاتهم في زمن المجاعات لإنقاذ أرواحهم.

تبني الأطفال والعناية بهم

لم يكن الوصول إلى العبودية هو القدر المحتوم للأيتام أو أطفال البغاء. إذ هناك بعض الحالات التي يتبنّى بها زوجان لا أطفال لهما طفلاً يتيماً ليكون وريثاً لهما وقد وجدت تشريعات تخصُّ مثل هذه الحالات في قوانين الشرائع القديمة ولقد وجدت وثائق عديدة تعالج قصة التَّبنّي من هذا النوع. ونقرأ في إحدى هذه الوثائق ما يلي:

«إن ياحاتي إيل Yahatti-il هو ابن حيلالوم Hillalum من السيدة ألتوم Alitum وهو سوف يتمتع ويستفيد من أبويه في حالة اليسر، ويقاسي معهما في حالة العسر. فإذا قال حيلالوم الأب لابنه ياحاتي – إيل أنت لست ابني وقالت السيدة ألتوم لابنها يا حاتي – إيل أنت لست ولدي، فإنهما سوف يعاقبان بمصادرة بيتهما مع الأثاث والمفروشات. ولكن إذا قال ياحاتي – إيل لحيلالوم، أبيه وللسيدة ألتوم أمه أنتَ لست أبي وأنتِ لستِ أمي، فإنه سوف يعاقب ببيعه كعبد وقبض ثمنه بالفضة.

وبالنسبة لحيلالوم والسيدة ألتوم، ومَهما أصبح لهما من أولاد، فإن ياحاتي – إيل يظل ورثيهما وعند توزيع الميراث سوف يصيبه حصة مزدوجة ويصيب الأخوة الصغار بقية الإرث بالتساوي».

لا ينتظر أن يكون في العالم القديم تأمين اجتماعي كما نعرفه ولكن هناك دلائل (عدا عن الدلائل المذكورة آنفاً) أن الفقراء والضعفاء كانوا يحصلون على المساعدة والحماية. إذ إن يوروكاجينا Urukagina بدأ في حماية الفقراء والضعفاء ضد الأغنياء والأقوياء وتحاول مجموعة القوانين في الفترات التالية أن تتبنّى نفس الدعوة سرّاً أو علناً وهي التي تبنّاها من قبل. ونحن نجد بعض الحالات حول هذا المبدأ ليس في مجموعات القوانين فحسب، بل في حالات الإحسان تجاه بعض الأشخاص. وهكذا هناك رسالة من مملكة ماري تقول إن يتيماً صغير السن لأب عجوز خادم في القصر قد أوكل به لحمايته من قبل نائب الملك ياسماح حدد Yasmah-Adad :

«إلى سيدي ياسماح حدد أقول يقول حاسيدانوم Hasidanum خادمك. لقد نُقِل موظف القصر المسؤول عن البريد عن مملكة ماري وإن هذا الرجل قد مات الآن، وله ولد لا يزال حديث السن أرجو من سيدي أن يرى هذا الطفل وإني أؤكد أنه يتيم وليس له من ولي أمر وأرجو من سيدي أن يسهّل أموره».

العُطَل

لم تكن الحياة بالنسبة لشعب منطقة ما بين النهرين – وحتى العبيد مجرّد عمل مرهق لا ينتهي، بل بالحقيقة فقد كانت الأيام المقدسة هي أيام عُطل أيضاً – وكانت الأعياد الدينية تخترق جميع الأعمال والأشغال، وكانت هذه الأعياد تستغرق عدة أيام أحياناً في كل شهر على أنها لم تحسب على أسس أسبوعية مثل العطل عند اليهود والمسيحيين. وقد كانت أكبر عطلة في السنة عبارة عن أحد عشر يوماً (أو خمسة عشر يوماً) بمناسبة عيد رأس السنة وكان الشعب فضلاً عن الكهنة يقضون هذه الأيام بالفرح والمرح والمهرجانات والمواكب ومعاشرة البغايا.

وحتى أثناء أيام العمل كان هناك حدود للعمل يتوقعها العمال وكان العمال يتقدمون بالشكاوى التي كان ينظر إليها بعين الاعتبار إذا كلّفوا بأعمال مرهقة، ويعلّق أحد الموظفين في رسالة كتبها في أواخر القرن السابع ق.م، على بعض الأعمال التي بُذلت أثناء بناء أحد السدود من قبل بعض الرجال الذين كان هو مسؤولاً عنهم فيقول:

«إن العمل هنا صعب وقاسٍ، وإن إنجاز مهمة نقل الطوب التي أوكلنا بها عظيمة وشاقة فقد كان الرجل الواحد يكلف بنقل ١١٠ طوبة كل يوم».

وفي رسالة أخرى يشير الكاتب إلى احتمال حدوث إضراب بسبب ممارسة عمل غير مرغوب فيه، وفي هذه الرسالة يتقدم الكاتب بالشكوى إلى الملك:

«لقد عيّن الملك نابو – شار-يوشور مسؤولاً عن عمل العمال ولكن العمال لا يوافقون على القيام بهذا العمل ولهذا فسوف لا يقومون بإنجاز أعمال الملك».

الطعام والشراب

كان غذاء الشعب في بابل سواءً الأحرار أم العبيد مؤسساً على الشعير الذي كان يقدّم المصدر الرئيسي للمشروبات وهو البيرة فضلاً عن الطعام الرئيسي من الحبوب، وكان الشعير يؤكل بشكل خبز مصنوع من عجين غير خامد وبشكل أقراص رقيقة تنشر على سطح ساخن وتعطي الخبز اللذيذ والذي لا يزال أهل العراق يأكلونه وخصوصاً الفلاحون مع أن الطبقة الراقية من الشعب تحتقر هذا الخبز. وكانت الحبوب الأخرى التي تؤكل بشكل خبز أو عصيدة هي الدخن، والقمح والشوفان والأرز (اعتباراً من الألف الأول ق.م) وهناك طريقه لطبخ الحبوب وهي للحلويات والكعك أو البسكويت، وذلك بطبخ الطحين الممزوج بالعسل والسمن وزيت السمسم والحليب ومختلف الفواكه.

وكانت أكثر الخضروات شيوعاً هي البصل بينما استعمل العدس والفاصولياء والبازيلاء (وهي من مصادر البروتين) خصوصاً لعمل الحساء وقد كانوا يأكلون

الخيار وكذلك الملفوف وكانوا يزرعون الخس كما هو الحال الآن وكان مسؤولاً كما هو الحال اليوم عن نقل كثير من الأمراض الناتجة عن الحياة القذرة، كما أن التّمر وهو المصدر الغني بالسكر كان جزءاً هاماً من الغذاء بينما كانوا يصنعون نبيذ التمور من البلح. وكان هناك فواكه أخرى وهي التّفاح والرّمان والتين والسفرجل والمشمش وكان النبيذ معروفاً ويصنع من العنب ولم يكن مشروباً مستعملاً كل يوم وكانت هذه المشروبات التي كانت تحتوي على كميات كبيرة من النبيذ في زمن السومريين توضع في أنابيب كانت نهايتها مثقوبة لتشكل نوعاً من عملية تصفية المياه.

أنبوب لغرض الشرب

وقد عرفت أنواع كثيرة من البيرة وتحتوي الأدبيات البابلية على قائمة طويلة من العمليات المستخدمة لعمل البيرة وحتى زمن حمورابي كانت عمليات صنع البيرة تتم عن طريق النساء وذلك لأن هذه المهنة كانت الوحيدة التي تحميها آلهة مؤنثة. بينما ذكرت شريعة حمورابي اسم الزوجة صانعة البيرة أو الجعة. وكانت عمليات صنع البيرة تصوّر بشكل صور فنية. كان الحليب يؤخذ من الغنم والماعز والبقر وكان من الأصل الحليب يستعمل كما الآن بشكل اللبن والزبدة والجبن وفي إحدى الصور التي تعود إلى الألف الثالث ق.م. هناك صورة تمثل إنتاج الحليب ومشتقاته وكانت العجول توضع أمام أمهاتها من البقرات وذلك ليزيد نتاج الحليب لدى البقر. وهكذا برهَنَ السومريون أنهم أكثر ملاحظة لسلوك الحيوانات من السكوتيين الذين عاشوا

تخمير الجعة

بعد ألفي عام والذين كان عبيدهم العميان يتعاملون مع الحليب بالشكل التالي وذلك طبقاً لما ذكره هيرودوتوس:

((يستعمل العبد أنابيب من العظام تشبه المزمار ويدخلونها في عجز الفرس وكان بعض العبيد يعملون في استخراج الحليب من الأفراس بينما كان الآخرون مشغولين بالنفخ وهم يؤكدون أن عملية النفخ تعمل على توسيع أوردة الفرس بالهواء وهكذا يجبرون الحليب على الخروج من الضّرع.))

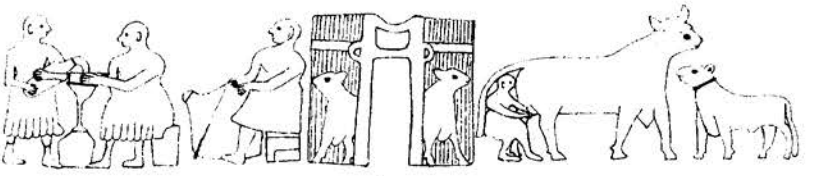

تصنيع الألبان

وفي الصورة للأفريز التي وجدت في سومر يجلس الحلاّب على كرسي بدون ظهر خلف البقرة ووضع غير عادي ويقول كاتب هذا الكتاب: إن هذا الوضع مازال مستعملاً في إنكلترا. وعلى مقدمة منه هناك رجل آخر جالس على كرسي وهو يهز الحليب وإناء كبير لعمل الزبدة وأما المشهد إلى أقصى اليسار فهو يُظهر رجلين يضعان ما نتج لديهما من الزبدة لفصل الزبدة عن الحليب وكان المصدر الرئيسي المحتوي على البروتين عدا عن الحليب هو السمك وخصوصاً في الأزمنة القديمة مع أنه حصل نقص في استعماله فيما بعد. وقد ذكرت أنواع كثيرة من السمك في الوثائق الإدارية في الألف الثالث ق.م وحتى فترة الأسرة الأولى في بابل. وقد وجد نص سومري يعود إلى عام ٢٠٠٠ق.م وضعت فيه عادات وأنواع كثير من الأسماك بالتفصيل وذلك بشكل دعوة للإله للدخول إلى البيت ومباركته، وليس من الواضح أن هذا النص يمثل المعرفة الواسعة للكاتب أم أنه كان مهتماً بجذب السمك حتى يدخل إلى شبكة الصياد. وبعد فترة الكاشيين مع أنه لم يؤكد في الديانة الرسمية أصبح أكل السمك أقل شيوعاً وقد قيل إن هناك طقس منتشر لمنع أكل السمك

وهذا أمر مقبول لأنه ورد عن منع مشابه في سوريا في الألف الأول ق.م بينما يحتفظ بالسمك المقدس في عدد من الأماكن في العراق. ومن الممكن أن نذكر خلافاً لهذا الاستنتاج أن بعض النقوش النافرة الآشورية التي تعود إلى الألف الأول ق.م تصوّر صيد السمك بواسطة الشباك في إحدى البُرَك بينما كانت عملية صيد السمك تجري في الفترة البابلية الجديدة.

كان لحم الغنم فضلاً عن لحم البقر يؤكل في مناسبات الأعياد وكانت التضحية بالماعز ظاهرة من ظواهر عبادة الفلاحين وكذلك غذائهم. وبعد تقدم الحضارة في سومر استبدل الماعز الحقيقي المقدم للآلهة بنماذج من صور الماعز وهذا يدل على نقص استعمال لحم الماعز لدى المواطنين العاديين، ومع ذلك فقد كان الآلهة والملك يستلمون كميات كبيرة من اللحم كإعاشة وكانوا يسمّنون المواشي لتصبح ذات حجوم كبيرة. إذ هناك ذكر في بعض الرسائل من مملكة ماري لثور كان مخصصاً كتقدمة للإله من قبل القصر قد أصبح سميناً جداً لدرجة أنه لم يعد يستطيع الوقوف، ولم يكن هناك من طقوس لمنع لحم الخنزير الذي لا يزال موجوداً وبأعداد كبيرة جنوب العراق (كما هو الحال في بعض أجزاء البلاد الأخرى). وفي زمن السومريين كانت الخنازير تُرَبّى بشكل قطعان كبيرة. وكان الطعام الذي تجمعه الخنازير من القمامة يضاف إليه الشعير المطبوخ. وفي كثير من المجتمعات القديمة والبدائية يبدو أنه كان هناك نقص في المواد الدهنية في الأغذية ولذلك فقد كانوا مغرمين بأكل اللحم المدهن أكثر منّا. وهكذا فكان لحم الخنزير المدهن طعاماً مرموقاً في بابل القديمة ويقول المثل السومري إن اللحم المدهن ليس نافعاً للإماء الفتيان اللواتي ينبغي أن يأكلن لحم الخنزير الخالي من الدهن وكانت المواشي قليلة العدد نظراً لقلة المراعي، وكان لحم الخيول مسموحاً بأكله من قبل البشر دون وجود طقوس لمنع ذلك وذلك على الأقل في منطقة نوزي Nuzi إلى الشرق من آشور في القرن الرابع عشر ق.م. ولقد سُجّلت دعوى قضائية اتُّهم بها أشخاص بسرقة وأكل لحم حصان وقد استعملت جثث

الحمير الموتى طعاماً للكلاب أما بالنسبة للطيور الداجنة، فكان الإوز والبط يربى منذ أقدم الأزمنة ولم يصل الدجاج إلى البلاد حتى الألف الأول ق.م.

ولقد كان مقدار كبير من الأطعمة المذكورة أعلاه يُحفظ لأيام ندرة الطعام. إذ إن الحبوب لا تشكّل أية مشكلة بينما كانت البقول تجفّف في الشمس. وكانت الفواكه المختلفة تحتفظ وذلك بضغطها لتصبح شبيهة بالكعك، وكان السمك يحفظ بتمليحه وكذلك يُحفظ اللحم.

إدارة المنازل وتجهيزات المنزل:

لا تظهر المنازل السومرية والبابلية وخصوصاً بالنسبة لأولئك الذين اعتادوا على نماذج من البيوت المبنية بعد الحرب بأنها مريحة أو صحية، فقد كان منزل الرجل العادي خلال القرن الثالث ق.م. لا يزيد عن كونه ذا جدران سميكة وخالياً من النوافذ. وكانت الغُرف تجهّز بحيث تناسب الموقع والمناخ دون الرجوع إلى أي مخطط، وكانت الأبواب بين الغرف واطئة بحيث يضطر الإنسان إلى الانحناء عند المرور خلالها من غرفة إلى غرفة، وكان أي بيتين متجاورين يملكان جداراً مشتركاً وفي بعض الحالات كانت تكتب العقود التي تثبت حق الجار بوضع عوارض على الجدار. وقد وجد نوع من البيوت الممتازة المصنوعة من الطوب المشوي. وكانت مثل هذه البيوت تبنى حول باحة مركزية تشبه النوع القديم من بيوت الطبقة الغنية في بغداد في بدايات القرن العشرين وهذه كانت تتألف من أكثر من طابق واحد...

إذا قارنا البيوت السومرية والبابلية أو البيوت الشرقية الحديثة ببنايات أوروبا الغربية نرى فروقاً شاسعة. فالغرض الأساسي من البيت في إنكلترا هو إبعاد الرطوبة وتيارات الهواء الباردة، بينما نجد أن الغرض الأساسي من البيت في العراق الجنوبي هو إبعاد الحرارة الفظيعة التي تنصبّ مدة اثنتي عشرة ساعة يومياً ابتداءً من أول أيار حتى أيلول قادمة من الشمس الحارقة عديمة الشفقة. فالنوافذ في ذلك المناخ ليست نعمة من النّعم. فالأشخاص الجهلة الذين أسيء توجيههم والذين يحاولون أن

بينوا في بغداد بيوتاً حديثة تشبه بيوت إنكلترا ذات الجدران الرقيقة من الطوب والإسمنت المسلح ومساحات واسعة من الزجاج يجدون أنهم لا يستطيعون أن يجعلوا بيوتهم صالحة للسكن إلا بعد أن يُطلى الزجاج بطبقة ثقيلة وإلا بعد أن يركبوا آلات للتبريد. ولقد كانت البيوت في منطقة ما بين النهرين تحتوي أمام النوافذ شبكات من الصلصال والخشب موضوعة في الجدار ولقد وجدت أمثلة من الألف الثالث ق.م (انظر اللوحة ١٥أ) وهي مشابهة للنوع المستعمل في العراق في هذه الأيام.

وكانت تجهيزات البيت تختلف بالطبع بشكل كبير من فترة زمنية إلى فترة أخرى ومن منطقة إلى منطقة، ومن طبقة إلى طبقة فالمفروشات والقصور ليست نموذجية والطريقة المثلى هي أن تصف محتويات بيت خاص بشكل مفصّل ولسوء الحظ فإن أحوال التربة والمناخ في العراق لا تسمح ببقاء الأدوات الخشبية والمنسوجات مدة طويلة بينما وجدت أدوات المطبخ سالمة لكونها مصنوعة من المعدن، ولذلك لا عجب أن لا نجد أي محتويات من البيوت قد كشفت عنها الحفريات بشكل كامل.

كانت التخوت الخشبية شائعة وقد وجدت صورها في النقوش النافرة في آشور وتذكر أيضاً في النصوص الطبية حيث يفترض أن ينام المريض عليها. ويفترض البعض أن شعب ما بين النهرين كان ينام على بُسط وحرامات ولكن ليس هناك من شواهد تثبت هذا. وبالنسبة للطاولات فقد كانت الآلهة تتناول طعامها عليها بما يدل أن استعمال الطاولات للأكل في بابل كان عملاً ذا قيمة عالية فقد كان الأشخاص الأثرياء على الأقل هم الذين كانوا يتمتّعون بما كان يتمتع به الآلهة بهذا الخصوص. نظراً لأن الطاولات كانت تذكر بشكل متكرر في الأنصاب الآشورية وكانت الكراسي ذات الأرجل وحتى المساند شائعة في القصور. بينما استعملت الكراسي الخالية من الظهر منذ بداية الألف الثالث ق.م وقد وجدت مقاعد مبنية من الطين. وكانت المفروشات الأخرى الرئيسية في البيت عبارة عن بعض الصناديق الخشبية المستعملة لخزن المواد.

أما بالنسبة لأواني الطبخ المستعملة للأكل فقد كانت الأصابع تُعتبر أنها المناسبة لتناول المآكل الصلبة مع أنه وجدت شوكات من العظام ذات سن واحد وبأعداد كبيرة. وكانت السكاكين شائعة طبعاً أما بالنسبة للسوائل فقد استعملت الملاعق المصنوعة من البيتونين أو العظام. ولقد تغيَّرت أساليب الأكل والشرب والأواني المستعملة لذلك الغرض من وقت لآخر ولكن ظل هناك الصحون والطاسات والفناجين المصنوعة من الفخار أو الخشب أو الحجر أو المعدن. كان الطعام يطبخ على فرن كان موضوعاً في باحة المنزل مع أنه وجدت مواقد داخل البيوت ولقد استعملت المناقل لوضع النار للتدفئة في داخل البيوت حيث تؤمن هذه الراحة للسكان في أوقات البرد. مع أنه استعملت أنواع من المناقل النحاسية المزينة بأشكال تشبه الأسود في مواضيع طقوسية.

وبين أواني الطبخ وُجد إناء يشبه المقلاة خلال أوائل الألف الثالث ق.م. وكانت الأطعمة المؤلفة من الحبوب تحضر عن طريق الطحن وكذلك بعض البقول. ومن الممكن أن نجد في بعض المدن القديمة مثل كوتاح بعد قليل من التفتيش والتنقيب بعض المدقات والهاون المصنوعة من الصلصال المشوي أو الحجارة وهناك ضرورة أخرى وهي وجود الطاحون لطحن حبوب الذرة، أو عمل الخبز ولقد وجدت طواحين يدوية مصنوعة من الحجارة البركانية المستوردة في بعض البيوت.

أما المجوهرات وهي الأقراط، والخرز والأساور والخلاخيل (انظر لوحة رقم ٦٢) فكانت موجودة في المنزل العادي بالإضافة لبعض أدوات الزينة (التواليت) مثلاً بعض الأوعية المحتوية على زيوت تستعمل لدهن الجسم والشعر، والمرايا من النحاس أو حتى الفضة أو الذهب، وقد وُجد في أحد القصور التي تعود إلى حوالي ٢٣٠٠ق.م أنواع من الخرز بالإضافة إلى أوعية من الصدف تحتوي الكُحل والروج وهذا مما أوحى للمكتشف أنه كان في مقصورة إحدى السيدات الحديثات. كان هناك حمّامات خاصة (من النوع التركي) قد وجدت في القصور ولكن لم توجد في البيوت الخاصة التي كان سكانها يستحمون في الأنهار ولقد وجدت مراحيض تعود إلى الألف الثالث ق.م تتألف من أرضية واقعة فوق حفرة أو مصرف وهناك

مقاعد من البيتومين في إحداها لتضيف إلى راحة الذين يستعملونها (انظر اللوحة ١٣أ).

وطبقاً لمعرفتنا لم يكن هناك أي نظام للبلديات للتصرف بمياه الصرف الصحي للمنازل الخاصة، ولكن بنايات الدولة كانت تحتوي على نظام مرموق من الصرف الصحي يعود إلى الألف الثالث ق.م. وفي بناية كبيرة تعود إلى عام ٢٣٠٠ ق.م التي يظن أنها كانت قصراً في إيشنونا Eshnuna (تل أسمر الحديثة) الواقعة على نهر ديالا كان هناك ستة مراحيض لها مقاعد مرتفعة مصنوعة من الصلصال المشوي، ووجد خمسة حمّامات أيضاً وقد كانت المراحيض والحمامات متصلة بمصارف تنتهي بساحة للصرف الصحي، وهي عالية ومسقوفة بعقد من الطوب المشوي (انظر اللوحة رقم ١٣ب) وكان كل مرحاض مجهزاً بإناء يحوي الماء. وقد وجد أن بعضها وفي زمن اكتشافها لا يزال محتوياً على مغرفة من الفخار كانت تستخدم لنشر الماء في المرحاض بعد الاستعمال وكانت قصور الآشوريين التي تعود إلى الألف الأول ق.م تحتوي نظاماً مرموقاً من الصرف الصحي وكان المصرف الرئيسي عرضه خمسة أقدام وكانت نهايته مغطاة بحاجز ذي قضبان لمنع الدخول. وكانت مياه الصرف الصحي تلقي بمحتوياتها إلى النهر. كانت الإضاءة تتوفر إما بالمشاعل التي كانت تتألف من حزمة من القصب مغموسة بالزيت أو البيتومين أو بواسطة المصابيح وكان المصباح يتألف من وعاء يشبه الحذاء وهو مملوء بالزيت وفيه فتيل يخرج خلال ثقب واقع في الأعلى. والزيت المستخدم لهذا الغرض هو إما من زيت السمسم (لم يكن زيت الزيتون مستعملاً بصورة شائعة) أو من زيت البترول الخام المأخوذ من بعض طبقات الأرض هناك وهذا الزيت هو زيت البترول الذي تعتمد عليه أوروبا في هذه الأيام.

لقد ظهرت مخاطر عدة بالنسبة للبيوت فقد كان من الشائع انهدام بعض البيوت المصنوعة من الطوب المجفف بالشمس، وقد وجدت عدة إشارات لمثل هذه الحوادث وهذه المشاكل. وقد خصصت شرائع حمورابي عدة بنود لهذا الغرض وهي تقرر أنه إذا بنى أحد البنائين بيتاً وقد انهدم هذا البيت وقتل الساكن فيه فإن البناء

نفسه ينبغي أن يحكم بالإعدام فإذا تسبب الهدم بقتل ابن ساكن البيت فإن ابن البناء ينبغي أن يُعدم. ولقد ذكر في إحدى النصوص أن سن إيدينام Sin Iddinam ملك لارسا قد لاقى حتفه فعلاً بسبب انهدام بيت الدرج في أحد المعابد. وكان هناك طقوس معدّة لمنع الجدران من السقوط وحتى أنه كان هناك بعض نذر حيوان النمس التي تتنبأ بموت أحدهم خلال بعض الحوادث من هذا النوع.

إذا رأى أحدهم حلماً مفاده بأنه قد انحدر إلى العالم السفلي، حيث قابل أحد الأموات الذي باركه فإن هذا الرجل سوف يموت بسبب انهدام أحد الجدران عليه.

وإذا حلم أحدهم أنه قد انحدر إلى العالم السفلي وأكل شخصاً ميتاً فإن هذا الرجل سوف يموت بسبب سقوط إحدى عوارض البيت على رأسه.

وقد كانت هناك عدة منغصات في البيوت القديمة وهي الحيوانات الزّاحفة فالعقارب لا تزال متوفرة في بعض أجزاء العراق، وهذه العقارب تجد طريقها إلى البيوت الحديثة في وسط بغداد من وقت لآخر. ففي الأزمنة القديمة لابد وأنها كانت شائعة في البيوت المصنوعة من الطين وذات السقوف الطينية أيضاً، وهناك مجموعة من النذر السيئة تشير إلى العقارب التي تسقط من السقوف على الرجل أو على فراشه، وهناك عدة أدوية كردٌ للسّع العقرب. وهناك الأفاعي التي كانت تتجول أحياناً وربما كانت تفتش عن غذاء لها من القوارض وكذلك كانت تتجول فيما بين أغصان الشجر والطين المكوّن لسطوح المنازل وهناك إشارات عديدة في النصوص البابلية إلى الأفاعي الساقطة من السقف على الرجل أو على فراشه وفي بعض الظروف كانت مثل هذه الحوادث تعتبر من الحظ السعيد.

تخطيط المدن – الموارد المائية

لم يكن تخطيط المدن مجهولاً في منطقة ما بين النهرين القديمة وخصوصاً في فترة تجدّد آشور. وفي الأزمنة القديمة كانت المدن تنمو وتكبر بالتدريج حول جوار المعبد. ولكن وفي عدة حالات وفي زمن الآشوريين كان الملوك يبنون المدن

بناء على وجود مخططات مدروسة وهناك مثال مشهور هو بناء مدينة كالخ (نمرود الحديثة) التي أعاد بناءها آشور ناصر بعل عام ٨٧٩ق.م وعمّرها بجَلْب حوالي سبعين ألفاً من السكان، ولقد خططت هذه المدن بناءً على الحاجات العسكرية. وهناك مثال آخر وهو مدينة دور – شاروكين (خورس آباء) التي خطط لها وبناها الملك سرجون الثاني لتصبح عاصمة جديدة له وذلك على موقع قرية صغيرة. ولقد جُهِّزت مثل تلك المدن بطرق رئيسية للخروج مع وجود شوارع مُبَلّطة بالحجار للمساعدة على مرور الجيوش الملكية في طريقها إلى حملاتها. ولقد أجريت الحفريات على طرق من هذا النوع في نمرود بينما يذكر سنحاريب طريقاً أخرى عندما يقول: عند ذكره إعادة تخطيط نينوى وعندها يقول إنه إذا تجرَّأ أحد على تخريب الطريق الملكية، فإنه سوف يعاقب بالقتل عن طريق الخازوق. ولقد بُذلت العناية التامة بالمواصلات النهرية في المدن الآشورية. وبالنسبة لمدينة نمرود فقط وُجد أنها قد زودت بسور للميناء عمقه حوالي ثلاثين قدماً وهو مؤلف من قطع من الحجارة المصقولة يبلغ قياس الحجر الواحد حوالي ياردْ مكعب أو أكثر.

لقد كان تزويد المدن القديمة بالمياه من الأمور ذات الأهمية القصوى بالنسبة للحكام. وإن الانتباه إلى هذه القضية يُعتبر من المنجزات الهامة لحزقيال النبي. وكانت قضية المياه قد لا تمثل مشاكل كبيرة بالنسبة لبابل ولكنها كانت تتطلب عناية كبرى في آشور وذلك لأن مستوى مياه نهر دجلة معرّض للتغير أكثر من مستوى مياه نهر الفرات وهو أكثر انخفاضاً بالنسبة للأراضي المجاورة بحيث أن استخدامه لأغراض الري أقل سهولة في معظم أيام السنة. ولقد قام سنحاريب بمجهودات عظيمة لجلب الماء إلى نينوى وذلك بقصد إرواء الحدائق والبساتين التي أنشأها ولذلك فقد حفر قناة طولها ستة أميال وجلب الماء بواسطة خندق طوله ثلاثمائة ياردة. ولقد كلّف هذا المشروع استخدام حوالي مليوني حجر وزن كل منها ربع طن، ولقد وضع في أسفل مجرى النهر جلاميد من الصخور الخشنة كان من الواجب العبور فوقها، وتشكل رصيف فوق هذه الجلاميد... ومن هذا الرصيف في مجرى النهر ظهرت ستة دعامات لحمل الأقواس حيث قطع الخندق مجرى النهر

وكان الجزء الأعظم من الثلاثمائة ياردة التي تشكل طول الخندق مبنياً بالطبع على أرض جافة. وقد كان أعلى الخندق يتألف من رصيف مستوى عرضه أربع ياردات وكانت جوانب هذا الرصيف مقوّاة بالدعائم وقد أشير إلى بناء مشروع من هذا النوع لإمداد مدينة أربيلو بالمياه.

وكان هناك عدد من الآبار في كالخ وهي محفورة حتى عمق تسعين قدماً وذلك لتأمين حاجة المدينة إلى الماء في حالة وقوع حصار وقد وُجد أن أحد الآبار يقدم حوالي خمسة آلاف غالون من الماء يومياً وقد وجد في نفس البئر بكرة خشبية عليها علامات الاهتراء من جرّاء وجود حبل لا يزال أثره ظاهراً، وكان هناك عدد كبير من الجرار وبعضها يظهر عليها آثار قطع من الحبال على أعناقها ومن الممكن أن تكون هذه الجرار عبارة عن عدد من الأواني التي تديرها آلة لرفع السطول من البئر ويشير سنحاريب بفخر إلى وجود آلة من نفس النوع عندما يشير إلى إعادة بناء عاصمته نينوى «ولكي نحصل على الماء يومياً أمرت بصنع الحبال في السلال ووضعت دعائم وقضبان فوق الآبار بدلاً من الأعمدة».

الملابس

وبالنسبة للملابس كانت الأزياء تتغير باستمرار خلال ألفين وخمسمائة عام أي من عام ٣٠٠٠ق.م حتى عام ٥٠٠ق.م. ولقد كانت المنسوجات معروفة بالتأكيد ابتداءً من الألف الثالثة وقبل أن تبدأ الأقمشة بالظهور كانت الجلود وجزة الغنم مستعملة ويظهر أن الأثواب التي لبسها السومريون كما كانت مصورة على الأنصاب كانت مصنوعة من جلود الأغنام، أو الماعز ولكن علينا أن نتذكر أن الفنون القديمة كانت خادمة ومنفّذة لرغبات الآلهة وليس لمعاهد الفنون وهكذا كانت الفنون عبارة عن مشاهد متعلقة بالطقوس الدينية أكثر من علاقاتها بالحياة اليومية المعاصرة وهناك بعض الشواهد التي تشير أنه في فترة البروتوليتريت Protoliterate كان شعب العراق الجنوبي يسيرون وهم عراة الأجسام لإتمام أعمالهم اليومية في الحقول. وقد وُجد أن الإنسي Ensi قد ظهرت صورته وهو واقف

أمام الإله عارياً، وهذه الحالة من العري ربما تمثل عادات أهل سومر قبل بضعة قرون وكان الرداء المستعمل في الطقوس الدينية مختلفاً عنه في الحياة اليومية.

وحيث كانت المنسوجات مستعملة، فقد كان الرداء الشائع الاستعمال عبارة عن تنورة ذات ثنيات طولية، وهي تظهر في اللوحة (٨ب) ويظهر في إحدى اللوحات من أور (انظر اللوحة ١٢) وهي لوحة مزخرفة تظهر بعض الجنود وهم يلبسون مثل هذه التنانير بالإضافة إلى عباءة تلبس فوق الكتفين، ولقد وجدت صورة للإنسي جوديا وهو لابس شالاً طويلاً يصل إلى الكاحل ويتدلى فوق الكتف الأيسر، وفي أثناء الألف الثاني ق.م كان الرداء النموذجي يتألف من قميص داخلي مع قطع طويلة من القماش ملفوفة حوله وهي مشدودة عند الخصر بواسطة حزام، ولقد قُدّمت الملابس المصنوعة من غُرز في تلك الفترة وكان الرداء النموذجي في الألف الأول هو الرداء الطويل المشدود بدون تجعّدات.

وتذكر النصوص أصنافاً كثيرة من المنسوجات التي تتدرج من الأنواع الرخيصة المناسبة للخدم حتى الأنواع المناسبة ليلبسها الملوك وكانت أثواب الملوك والنبلاء وكما تظهر في الصور الآشورية النافرة مزيّنة بالتطريز.

وكان الصوف الذي يصنع منه معظم المنسوجات يؤخذ من الأغنام وليس بطريقة الجز التي نستعملها نحن، فقد كانوا يُجرون حمّاماً للحيوان قبل العملية ولكن كان هناك عمليتان أخريان في هذا السبيل أيضاً وكانت إحداهما طريقة النتف والثانية كانت غسل الحيوان في جدول فيه مياه جارية لفصل الصوف الفالت عن الجزّة، وليس من الأكيد أن الطريقة الأخيرة كانت مستعملة في منطقة ما بين النهرين، وكان شعر الماعز يستعمل في بعض الأغراض كما لا يزال الحال في العراق وهناك روايات كثيرة تخص صناعة الصوف وتُقدَّر أن سدس الألواح السومرية التي وجدت في نيبور كانت تتحدث عن هذا الموضوع وهذه الألواح تتحدث عن صنع الصوف باللون الأبيض وعن صباغة الصوف وغزله ونسجه في الألف الثالث ق.م. وقد استعمل الكتان والقطن أيضاً لصنع القماش ولكن بشكل أقل من استعمال الصوف.

أنماط قص الشعر

هناك دراسة ممتعة حول أنماط قص الشعر لدى النساء في منطقة ما بين النهرين في الألف الثالث والثاني ق.م. قام بها Agnes Spyket الذي اقتبسنا من مقالته الخلاصة التي أوردها بهذا الخصوص.

ففي فترة جمدت نصر (حوالي عام ٢٩٠٠ ق.م) كان كلا الجنسين لهما شعر طويل يتدلى بشكل عنقودي خلف الرقبة ومن الممكن أن يكون مربوطاً في الوجه بشكل من الأشكال مع أنه ربما كان يغطي الأذنين، وفي الفترة التالية للأسر الأولى (ولنَقل من عام ٢٨٠٠-٢٤٠٠ق.م) أصبح الزي الأساسي شعراً طويلاً مسترسلاً ابتداءً من الوجه ويضم بشكل خُصل وملفوف حول الرأس باتجاه قمة الرأس. ولقد حدثت عدة تعديلات لهذا الأسلوب بعضها كان إحداث ضفائر أمام الأذنين وأحياناً هناك نظام يساعد الشعر أن يترتب بشكل أفضل وبساطة أكثر وكان الشعر يترك بشكل كتلة واحدة متدلية مربوطة بشريط أو بواسطة جديلتين أخريين وفي فترة أغادي (تقريباً من ٢٣٧٠-٢٣٣٠قم) ما لم يكن الشعر كالمعتاد لدى الساميين المتسلطين متجعداً فإنه كان يموج وذلك لأن الشعر المتجعد والمتموج كان هو الزي المفضل وكان الشعر يُفرق في وسط الرأس وكانت تترك حاشية من الأمام وفوق الصدغين وكانت كتلة شعر السيدة ترفع من الخلف وتُرتب بشكل كعكة شعر في مؤخر الرأس وهذه تمتد من مؤخر العنق حتى أعلى الرأس. ولقد وجد نفس هذا الطراز في الفترة التالية (حوالي ٢٢٠٠-٢٠٠٠ق.م) وذلك عندما أصبحت كعكة الشعر التي كانت كبيرة تحتوي على شبكة فوقها مثبتة بواسطة شريط.

لم يكن شريط الشعر وكعكة الشعر هي الوسائل الوحيدة التي استعملتها السيدات في الأزمنة القديمة فقد كُنَّ يستعملن دبابيس الشعر فقد وجدت عيّنات من تلك الدبابيس وهي مصنوعة من العظام أو النحاس أو الفضة أو الذهب.

لقد كان السومري الذكر في النصف الأخير من الألف الثالث يقصّ شعره بشكل كامل أو أن يجعل شعره ولحيته مموجان، وهناك حالات من الرأس الأصلع

والافتقار إلى اللحية ومع أنه يقال إن تلك الحالة كانت مصحوبة بالشعر المستعار ولكن ذلك كان قليل الاحتمال نظراً لأنه وفي بعض الحالات وجد تمثال فيه رأس عليه لباس الرأس المناسب وليس هناك من إشارة لوجود شعر مستعار. واعتباراً من الألف الثالث ق.م حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية كان الملوك يظهرون بلحى متموجة وأحياناً بشعر طويل متموج بعيداً عن الأذنين وهو يسقط بشكل فضفاض وبشكل مرتّب جداً على الكتفين. وفي المشاهد الآشورية الدينية يظهر الملك والمحاربون وهم ذوو شعر طويل ولحى مسترسلة وتظهر أيضاً جماعة أخرى من الرجال وهم ذوو شعر طويل أيضاً ولكن حليقي الذقون ووجوههم نضرة ولقد اقترح أن يكون هؤلاء الحليقي الذقون من الخصيان ولكن ذلك غير مؤكد ومن الممكن أن يكون هناك أحد التقاليد القديمة وهو يمثل الشاب الذي يعمل في الخدمة الملكية بالأجرد أي الرجل أو الشاب دون لحية ومن المؤكد أن الاصطلاح الذي يقال للشخص «وهو أنك ليس لك لحية في ذقنك» إنما يستعمل ليدل على الرجل غير الناضج. وكان للعبيد نوع متميز من حلاقة الشعر كما كان الحال بالنسبة للكهنة والأطباء. ولقد نشأ هذا الاستنتاج من قصة الرجل الفقير من نيبور، حيث يقول البطل ولكي يتقمص شكل الطبيب يذهب أولاً لقصّ شعره على الصفر.

الزواج والعلاقات الجنسية

كان الزواج (خلال المجتمع السومري والبابلي) أحادياً بمعنى أن الرجل كان يتزوج امرأة واحدة كانت تعتبر زوجته وكانت تتمتع بالوضع الاجتماعي بحق المساواة مع الرجل. ومن جهة أخرى فلم يكن هناك من وصمة عار تلحق بمن يلجأ إلى العاهرات في المعبد وإلى المحظيات وعندما أصبح العبيد من الأملاك الشخصية أصبحت الإماء من العبيد تستخدم لأغراض جنسية ولم تكن حالة المحظية لتغيّر من حالة الأَمَة التي لم تكن تنعم بحرّيتها بشكل آلي بينما كان أولادها يستمرون في حالة العبودية ما لم يقبل السيد اعتبارهم أولاده الشرعيين. وكان من الممكن للرجل إن كان عازباً أو أرملاً أو إن كان رجلاً متزوجاً لديه زوجة مطيعة ولطيفة ومتسامحة أن يتزوج إحدى الإماء ويجعلها سيدة للمنزل. ولكن هناك انتقاد لمثل هذه

الأعمال ورد في أحد الأمثال وكذلك فإن سيدات المنزل المتنفذات لا يوافقن على ذلك العمل وربما بدأن في عمل أعمال تنغّص الحياة في وجه الزوج المسكين وتجعل بيته مكاناً غير مريح بالنسبة لذلك الزوج المتسرّع المسكين وهذا تشير إليه النبوءة التالية:

إذا اتفقت الزوجة مع الزوجة الأخرى فإن وضع المنزل سوف يصبح حسناً.

وهذا يشير إلى أن الوضع غير المريح للمنزل كان وارداً. وهناك يتبادر إلى الذهن وضع سارة وهاجر زوجتي إبراهيم.

هناك بعض الشواهد المأخوذة من الأمثال والتنبؤات حول التفاصيل الفعلية لأساليب الحب ولسوء الحظ فقد تَلِفت التنبؤات بينما من الصعب فهم الأمثال نظراً لأسلوبها اللاذع ومع ذلك، فإن هذه الأمثال إنما تدل أن السلوك العادي بالنسبة لهذه القضية هو نفسه في منطقة ما بين النهرين وفي أوروبا الحديثة. فقد كانت المُنَغّصات لعملية الحب مثل الضعف الجنسي والقذف السريع، معروفة في بابل ومع ذلك فرغم كل ما ذكر ومع وجود البغاء واللواطة وتسرّي المحظيات إلا أن الزواج ونعمته لم يكن نادراً، ويذكر أحد الأمثال السومرية قصة رجل متكبر يتباهى ويقول إن زوجته قد أنجبت له ثمانية أولاد وإنها لا تزال مستعدة للنوم معه وقبول عناقه كزوج. وإن الوضع الشائع للعمل الجنسي هو أن تستلقي المرأة على ظهرها وتواجه الرجل وجهاً لوجه ولكن هناك أوضاعاً أخرى واردة (انظر اللوحة ٥١ج) التي تظهر وضع الجماع بشكل الولوج من الخلف) وهناك نص يشير إلى أن الكاهنات الكبيرات كُنَّ يسمحن بالجماع سنوياً.

ليس هناك أي شاهد يشير إلى أن الختان قد لعب دوراً دينياً لدى السومريين أو البابليين أو الآشوريين، ويبدو أن هذا العمل كان منحصراً بالساميين الغربيين والمصريين ومن الممتع مع ذلك أن نجد تمثالاً من الحجر يظهر الرجل فيه مختوناً وربما كان هذا نتيجة لنفوذ الساميين الغربيين في تيب غاورا Tepe Gawra ويثبت أن عادة الختان في الشرق الأدنى القديم قد سبقت عهد موسى وحتى إبراهيم.

لقد كانت منزلة المرأة في الدول - المدن السومرية أعلى مما وصلت إليه فيما بعد. فقد كانت المرأة تعمل في خدمة المعبد في عدة أنشطة ليس ككاهنة فحسب أو عاهرة من عاهرات المعبد من اللواتي كُنَّ يتقاضين إعانات مالية من المعبد كالرجال، وقد حصلت زوجات الحكام مثلاً زوجة لوغالاندا ويوروكاغينا على مناصب غاية في الأهمية ولكن لا ينبغي التأكيد على ذلك لأننا من الممكن أن نرى أحوالاً معاكسة لدى بعض الملوك الآشوريين عندما ضعف نفوذ المرأة وهناك تلميحات تشير إلى أن وضع المرأة في بداية نشوء المجتمع السومري كان أعلى وأفضل من وضعها في ذروة الحضارة السومرية. وسبب هذا يكمن في ذلك الوضع البارز الممتاز في الدين السومري الذي كانت تحتله الآلهات اللواتي اختفين أخيراً من حياة بعض الآلهة سوى حالة عشتار وكان العالم السفلي تحت سيادة إلهة سيادة مُطلقة نظراً لأن إحدى الفتيات الأسطوريات أرادت أن تتخذ لها زوجاً وقد لعبت الإلهات دوراً في اتخاذ القرار الحاسم لهذا الشأن وهناك رأي آخر مفاده أن تعدّد الأزواج كان شائعاً وذلك لأن إصلاحات يوروكاغينا كانت تشير إلى نساء قد تزوّجن بأكثر من رجل واحد.

التعليم

من الواضح أن التعليم الرسمي كان متواجداً ومتوفراً في سومر ابتداءً من زمن اختراع الكتابة، إذ إن البراعة في كتابة الخط المسماري ليس عبارة عن مهارة فحسب أي من الممكن إجادتها بعد سنوات من التطبيق العملي والاجتهاد كما أكتشف أحد الطلاب الحديثين مما سبب له الحزن. فقد كان التجار والإداريون في حاجة لمعرفة الكتابة وكان الكتبة والكهنة يمتلكون درجة عالية من البراعة ومع ذلك فلسنا بحاجة إلى النقوش النافرة لنستنتج وجود نظام تعليمي منذ أقدم الأزمنة ما دام أن الألواح نفسها تشير إلى ذلك منذ أقدم الأزمنة. ففي بعض المواقع مثل موقع إيريش وشوروباك ونينوى وأور، لقد وجدت ألواح عليها تمارين للكتابة ولا شك أنها كانت تمارين مدرسية وذلك لوجود نفس النصوص مكررة عدة مرات من قبل عدة أيادٍ. أو وجود نص أدبي على وجه من وجوه اللوح وعلى الجانب الآخر تمارين

في الرياضيات ولقد كتبت معظم الأمثلة باللغة السومرية، ولكن الألواح المدرسية الأكادية أي المكتوبة باللغة الأكادية كانت معروفة من زمن الألف الثالث ق.م وقد وجدت قصة خرافية مملوءة بالأخطاء وقد شطبها المعلم الغاضب.

إن معظم شواهدنا حول نظام التعلم مع أنها مكتوبة باللغة السومرية تأتي من بداية الألف الثاني ق.م. حيث أصبحت اللغة السومرية المحكية على وشك نهايتها. والشواهد تتألف من سلسلة من المواضيع الإنشائية التي لا تزال في طور البحث والتفسير وهي تعالج تعليم الكاتب والتي قد ألفت في مدرسة الكتبة أنفسهم. إن صورة الحياة المدرسية التي تقدمها هذه النصوص تعطي انطباعاً كاريكاتيرياً تقريباً مما أدى بأحد الثقات الحديثين وهو C.J. Gadd ج. س. غاد الذي أجرى دراسة خاصة لهذه النصوص أن يلاحظ أننا لا نستطيع أن ننكر أن هؤلاء الرجال (وهم الكتبة) كان لديهم معرفة مرموقة بالكوميديا البشرية، ومن الممكن اعتبارهم مخترعي الصور المضحكة. وهناك تفاصيل عن هذه النصوص سوف نذكرها فيما بعد.

وتعرف شروط الالتحاق بهذه المدارس للكتبة، ولكن الطلاب كانوا من أبناء الأغنياء وذوي النفوذ وهذا يدل على وجود طبقة عليا بما فيها من المحاسن والمساوئ. وتأتي الشواهد على هذا من الوثائق الكثيرة العدد لفترة الأسرة الثالثة في أور (حوالي ٢١٠٠ق.م) التي تقول إن الكتبة كانوا عادة من أبناء المديرين في المدينة والمعبد وضباط الجيش والكهنة أو رجال كانوا من الكتبة في السابق، وفي إحدى النصوص الأدبية للجماعة المذكورة يقول هذا النص إن أحد الآباء أراد من أحد مديري المدارس أن يعتني بابنه وكان من الواضح أنه سوف يقدّم هبات سخية لأنه كان في وضع يستطيع به فعل ذلك. ولم يُذكر أي شيء في تلك النصوص عن التعليم المختلط مع أنه من المعروف وجود بعض الكاتبات المؤنثات وربما في جميع الفترات. كانت فترة التعليم طويلة ومجهدة ويقول النص إنها كانت تدوم من فترة الطفولة إلى فترة سن الرُشد. ولم يكن هناك تحريض على ترك العصا وعدم استعمالها. وكان العقاب الجسدي وارداً والذي كان ينفّذ عند وجود التمارين

الضعيفة والافتقار إلى الاجتهاد والملابس غير اللائقة والسلوك الشائن خارج أوقات الدوام، وفي حالة العصيان كان الطالب يُطرد من المدرسة أو توضع الأغلال في يديه.

هذا وإن الفرضية أن المدارس كانت توضع دوماً في رعاية المعبد، لا أساس لها من الصحة على الأقل بالنسبة إلى الحالة في أوائل الألف الثاني ق.م، مع أنه كان من الواجب أن يوضع التعليم تحت إشراف المعابد خصوصاً في أزمنة السلالة الأولى، وفيما بعد ذلك. ومهما يكن الأمر فإن اللقيات الرئيسية للنصوص الأدبية لم تتم في المعابد بل في بيوت خاصة، بينما وفي مملكة ماري مثلاً وجدت بناية تحتوي على مقاعد الدراسة وقد فسّرها علماء الآثار بأنها كانت مدرسة ولكنها لم تكن جزءاً من معبد.

الألعاب والرياضة ووسائل اللهو

وبالنسبة للألعاب ووسائل اللهو التي مارسها شعب منطقة ما بين النهرين القديمة من الصعب أن نتأكد أي منها كان له أهمية دينية أو سحرية، وأي منها كان منحصراً باللهو فحسب، وتظهر الصعوبة في القرار أقل غرابة عندما نتذكر أن بعض وسائل اللهو والرياضة في مجتمعنا الحاضر كان له أساس ديني أو سحري وكان المشتركون في هذا اللهو على عِلم تام بذلك.

إن أفضل رياضة معروفة عند الآشوريين كانت الصيد الذي كان يمارسه الملك. ومن المؤكد وجود أسس دينية لهذه الرياضة. فقد كان من واجبات الملك المقدسة صيد الأسود وذبح الحيوانات الأخرى. مثلاً يدَّعي تغلات بيلاسر الأول أنه قد قتل أربعة ثيران برية وعشرة فيلة وألف أسد تقريباً وفي فترة متأخرة كانت الأسود تمسك بصورة خاصة وتجلب إلى آشور حيث يُطلق سراحها من أقفاصها وذلك لإظهار براعة الملك عند إصابتها بالنبال وذلك في حديقة خاصة (انظر اللوحة ٤٠) ويبدو أن صيد الأسود كان أحد المناظر العامة الشعبية التي تُعرض سنوياً مع أنه ليس هناك من شاهد مباشر يُثبت هذا القول وهناك مشاهد صيد أخرى وجدت لها صور في

اللوحات ٤٤، ٤٢، ٣٩، ٣٨ لقد مارس الناس عَدَداً من مختلف الأشكال من القتال يداً بيد أثناء أوقات اللهو وربما كان لتلك الهواية أصل ديني، وهناك إشارة وجدت في ملحمة جلجامش عن مباراة في المصارعة ما بين جلجامش وأنكيدو وكان المنتصر فيها هو المصارع الذي استطاع رفع خصمه فوق الأرض. وهناك حامل أو منضدة مصنوعة من النحاس مخصصة للتقدمات والتي كشف عنها في تل عقرب وهي بشكل مزهريتين موضوعتين على رأسي اثنين من المتصارعين وهي تظهر نوعاً من المصارعة (انظر اللوحة ٥١ب) وتظهر الملاكمة في الفنون الجميلة (انظر اللوحة ٥١أ) مع أن المشهد الحقيقي المصور كان أحد الأنشطة ذات العلاقة بالطقوس الدينية.

ويُذكر الرقص في النصوص ولكن الرقص كان مرتبطاً بالطقوس الدينية بحيث لا يليق بنا أن نضعه مع أساليب اللهو.

ولقد وجدت ألعاب تمارس على ألواح وبشكل قطع فوق ألواح فيها مربعات إذ إنه قد وجدت عدة ألواح من هذا النوع (انظر اللوحة ٩ب) مع أنه لم تعرف أية تفاصيل عن الألعاب. ولا تزال لعبة النرد موجودة ومستعملة.

وابتداءً من فترة السلالات الأولى كانت الموسيقى من الضروريات في الأعياد الملكية بينما كان لها وجود في الطقوس الدينية وكان هناك الآلات الموسيقية التي تعتمد على النفخ وبعض أنواع وترية قد ذكرت في النصوص وظهرت صورها في الفنون (انظر اللوحة ٥٢) ولقد وجدت أمثلة عن هذه الآلات الموسيقية ضمن الحفريات. وترينا اللوحة رقم ٧ إحدى قيثارتين وجدت في أور. ووجد في نمرود عام ١٩٥٢ آلة موسيقية أخرى يُظن بأنها قيثارة. ولكنها مشوّهة بفعل الحفريات ولقد وجدت في القرن الماضي صافرة ولكنها فُقدت وربما كان أكثر الآلات الموسيقية بدائية البلاج Balag وهو عبارة عن طبل بحجم الساعة الرملية وكانت تستعمل في المعبد من

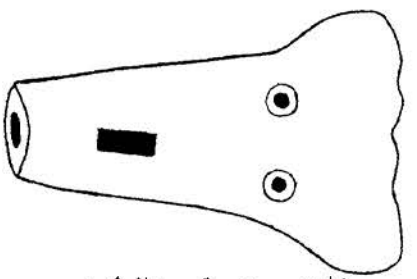

صفارة مصنوعة من الطين

قِبَل كاهن الكالو لتهدئة غضب الإله وقد وضع في باحة المعبد طبل خاص مقدّس كان يُضرب حين يحدث خسوف القمر.

الصحة الجسدية والصحة النفسية

لدى فحص النصوص الطبية والنصوص الأخرى تغيب عنا تلك الصورة للعالم القديم التي كانت تتصف بكون ذلك العالم عصراً ذهبياً تسكنه شعوب سعيدة وصحيحة الأجسام متحررة من المتناقضات ومن الهموم ومحرّرة من الحاجة. ومع أنه ليس لدينا إحصائيات متوفرة إلا أن الأمراض العقلية كانت من المؤكد معروفة جيداً وقد أشير إلى كثير من الحالات العصبية والنفسية وبالنسبة للأمراض النفسية يمكننا الرجوع إلى القصص التوراتية بخصوص نيبو تشادريزير الذي كان مريضاً بمرض الوهم بأنه ذئب وهذا يدل أن العالم القديم كان لديه دراية وعلم بنوع خاص من الأمراض العقلية ويبدو أن العائلة المالكة في عيلام كانت معرَّضة للأمراض العقلية وهناك إشارات لبعض الحكام وتلك المملكة يقال إن عقله قد تغير وليس معنى هذا أن الملك قد غيَّر سياسته بل أنه قد أصيب بمرض عقلي وتعتبر عدم القدرة الجنسية شكلاً من أشكال الأمراض النفسية، التي كان يقاسي منها بعض الملوك في العالم القديم كما هو الحال في العالم الحديث وهناك إشارات واسعة في النصوص. وفي المملكة الحثيّة كان هناك طقوس خاصة لمعالجة هذا المرض. وإن الاحتلام الليلي ليس مسبباً عن التوترات، بل لقد كان معروفاً للقدماء كما تثبت التنبؤات من الشكل التالي:

إذا أصاب الرجل انتصاب جنسي أثناء الليل وأصابه تلوث من الاحتلام فإن ذلك الرجل سوف يصاب بخسائر مادية.

إذا حدث للرجل انتصاب جنسي في أحلامه واستيقظ خلال الليل وأصيب بالتلوث فإن ذلك الرجل سوف يحصل على الثروة والغنى.

ومن بين الأعراض الأخرى كانت التناذرات والأمراض والصداع والحمى واردة وشائعة وقد ذكرت أمراض أخرى مثل اضطراب العضلات واللوزتين، والروماتيزم والأنواع المتعددة من الشلل وربما مرض السل. وقد ذكر أن أمراض العين والأذن كانت شائعة الحدوث وقد أشير إلى أعراض بعض الشكاوى الداخلية، كانت أمراض اليرقان والزهار شائعة، كما هو الحال في العراق، وبالنسبة لأثداء النساء واضطراباتها وحالات إسقاط الجنين فقد كانت هذه واردة ولم تكن نادرة. وقد ذُكرت الأمراض الجنسية مثل مرض السيلان، وقد أشير أيضاً إلى الدوالي في الأوردة. ولقد عرف البابليون الولادات غير الطبيعية والمواليد المشوهة التي حدثت وسجلت بصفتها إنذارات هامة بالشر.

وهناك قضية تفسير الأحلام حيث كانوا يستنتجون بعض الإنذارات أو الأحداث من الأحلام مثلاً:

إذا حلم الإنسان أنه يطير بشكل متكرر فإنه يسوف يخسر كل ما يملكه.

ومن الواضح كما هو الحال الآن أن القدماء كانوا يحلمون بالطيران. ويعلم القراء تفسير سيجموند فرويد لمثل هذه الأحلام وقد كان البابليون يحلمون بالكوابيس وهناك إشارة إلى الرجل الذي يحلم أن مدينته قد سقطت على رأسه باستمرار مع عدم وجود أي شخص يهبُّ لمساعدته وقد عرفت عندهم بعض الأحلام المزعجة كالمشي أثناء النوم في حالة من العري. كانوا يعتبرون مثل هذه الحالات إشارة لحسن الحظ:

إذا حلم الرجل أنه قد استيقظ عارياً فإن هذا الرجل سوف لا يصاب بأي اضطراب.

إذا حلم الرجل أنه جامع بشكل جنسي أحد الحيوانات البرية فإن الازدهار سوف يحل ببيته.

إذا حلم الرجل أنه قد جامع ابنته جنسياً (لقد فقدت بقية الفقرة)

إذا حلم المرء أنه قد جامع حماته جنسياً (لقد فقدت بقية الفقرة).

إذا حلم الرجل أن قضيبه قد أصبح طويلاً فإنه سوف لا يكون له أي منافس.

إذا حلم الرجل أن بوله قد خرج من قضيبه وملأ الشوارع فإن أملاكه سوف تصادر وتباع وتعطى لأهل المدينة.

إذا حلم الرجل أن بوله قد خرج متدفقاً وموجهاً نحو السماء فإنه سوف يرزق بولد، وهذا الولد سوف يصبح إنساناً مهماً ولكن أيامه سوف تكون قصيرة.

هناك عدد من الأحلام تشير إلى الأكل ويشار في هذه الحالة إلى أكل لحوم البشر وأكل جزء من جسم الحالم. هذا وإن أصول التفاسير هذه هي من قبيل التخمين مع أنه في بعض الحالات هناك شفافية في الرمزية مثلاً:

(إذا استلم أحد في منامه دولاباً من أحدهم فسوف يولد له توأمان.

إذا حلم الرجل أن أحداً ما قد أعطاه كأساً فارغاً فإن هذا الرجل إن كان فقيراً فسوف يصبح أكثر فقراً.

إذا حلم الرجل أن شخصاً ما قد أعطاه كأساً مملوءة فإن هذا الرجل سوف يصبح شهيراً وغنياً)

وفي بعض الحالات كانت التعابير تعتمد على تلاعب لفظي مثلاً.

إذا حلم الإنسان أن شخصاً قد أعطاه خشب الماهيرو فسوف لا يكون له أي منافس (كلمة ماهيرو باللغة الأكادية معناها المنافس)

التجاوزات الاجتماعية

لقد كانت الجريمة معروفة في العالم القديم في أشكالها الكثيرة كما هو الحال في هذه الأيام. فقد كان هناك بعض الشباب الذين أرادوا التخلص من سلطة الآباء، وكان هناك بعض القتلة والمغتصبين للنساء واللصوص العاديين فضلاً عن المختلسين والمزورين وقد ذكرت قضية اختلاس في رسالة أرسلها أحد الموظفين إلى موظف آخر يعلن فيها أن الكاتب قد فضحته سلطات المعبد وهو متهم بالاختلاس

فقد اختلس كمية من الشعير التي كان مسؤولاً عنها. ولقد أمرت سلطات المعبد أن يعيد المختلس الكمية التي اختلسها مع فوائدها. وبين الجرائم الأخرى فكما حدث في مصر وفي منطقة ما بين النهرين فإن وضع الأشياء الثمينة في القبور أدّى إلى نهب القبور وقد بدا ذلك ظاهراً من الحالة التي وجدت بها تلك القبور عندما تمّ العثور عليها وإجراء الحفريات فيها. بينما نجد في أحد النصوص البابلية وصفاً لمثل تلك الحوادث:

(لقد فتح القبر وأخذوا محتويات ذلك القبر.)

وكانت عقوبات الجريمة إما الإعدام أو دفع غرامة مع أنهم كانوا يلجؤون للتشويه أحياناً وخصوصاً في آشور. ولم يكن هناك نظام للسجن بينما كان المتهم يُسْجن قبل المحاكمة. وكان المدين يحجز مؤقتاً في منزله أو في منزل الدائن أو يصبح بحكم العبد. ولم يكن هذا الحجز مستمراً لوقت طويل. إذ حدث أن حصر أحد المدنيين مدة خمسة أشهر واعتبر ذلك فترة طويلة مرفوضة.

معاملة الحيوانات

ليس هناك من سبب يدعونا أن نفترض أن موقف شعب ما بين النهرين تجاه الحيوانات أكثر ليناً ورأفة مما هو عليه في معظم أجزاء العالم في هذه الأيام والحقيقة أن هناك نَصًّا يحتوي على هذه الكلمات: «لقد ضربتك على جسمك بالسوط كما يضرب الحمار الهارب» ومع ذلك فقد أظهر بعض الملوك اهتماماً بالحيوانات البرية. وكانوا يفرحون عند تلقي هدايا من هذا النوع، ولدينا رسالة يقول فيها أحد الموظفين القلقين إنه قد أمسك بأسد وأخبر الملك أنه يود إرسال هذا الأسد إلى الملك. وكان ينتظر تعليمات الملك في هذا الشأن ولكن التعليمات لم تصل. وفي أثناء ذلك حُفظ الأسد في مخزن القمح وكانوا يلقون له بكلب وخنزير ليأكل. وبعد ذلك يذكر الموظف:

قلت لنفسي «ربما سوف يهرب ذلك الأسد وكنت أخشى أن يحدث ذلك ولهذا وضعت الأسد في قفص خشبي ووضعته في سفينة وأرسلته إلى الملك».

وهناك صورة لأسد أليف وهو يمشي في إحدى الحدائق ومعه رجلان موسيقيان وهذه الصورة موجودة في أحد الأفاريز (وهي موجودة في المتحف البريطاني) وقد أخذت من قصر آشور بانيبال في نينوى.

لقد اعتبر الحصان وعومل بتكريم ولقد تمتع باحترام كبير في منطقة ما بين النهرين أيضاً. وكان هناك استثناء لهذه القاعدة في ماري حيث كتب أحد الموظفين إلى ملكه يشير أن قسماً من أتباع الملك على الأقل يعتبرون أن ركوب الحصان لم يكن شيئاً مشرفاً إذ يقول:

«دعوا سيدي يكرِّم ذاته الملكية وأنت ملك الهانيين ولكنك بنفس الوقت الأكاديين ولا ينبغي لسيدي أن يركب حصاناً. بل ينبغي لسيدي أن يركب عربة أو بغلاً وبهذا فهو يكرّم ذاته الملكية».

ولقد وصل الحصان إلى ما هو عليه من التكريم زمن الكاشيين في أواخر الألف الثاني وبالنسبة لهؤلاء فلم ينل الحصان شهرة وتكريماً فحسب بل أصلاً وتاريخاً ونسباً. وذلك كما علمناه من بعض النصوص من نيبور حيث تقدّم قوائم بالخيول مع أسمائها وأسماء أجدادها ونسبها.